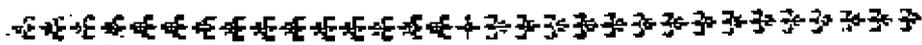


تحليل العواطف المركبة

الكره والحسد والاحتقار والانتقام والاعجاب والاحترام والتلق



النفس الانسانية فيه كثير الالتواء متشعب المسالك بلغة من يلجأ فلا يستبين صعوبة السير فيه الا اذا اوغل في منعطفاته ومعانياته . وقتها يدرك انه في سبيل ليست كالسبل العادية : وانه اذا شاء ان تكون نهاية لسيره عليه ان يسير مرعف الحس شديد اليقظة . وهذا الوصف لا يصدق صدقه على الناحية العاطفية من نواحي حياتنا العقلية . فحين اذ نعالج دراسة العواطف درساً مجزئاً نجد السبيل معبدة مطروقة والسير فيها ميسراً غير عسير ، لان علماء النفس قد اتهموا في دراسة العواطف الانسانية الاساسية الى شي يشبه الاجماع فاضحت العوامل التي تشير هذه العواطف وتقدمها والمظاهر النسبية والنزولوجية التي تعصبها واضحة محددة . ولكن اتي هنا ينتهي الوضوح ويتبدل اليسر عسراً . فاذا اتينا الى دراسة العواطف المركبة المشتقة من هذه العواطف الاساسية فهناك الحسد والتضيق وهناك الاختلاف في الرأي وهناك ما لا يكاد يتعدى الدراسة الذاتية . والتليلون الذين تصدوا لدراسة هذه العواطف مثل شاندر ومكدوغل وودورث لا ينكرون مقدار الصعوبة في هذه الدراسة ووجه الصعوبة هو ان هذه العواطف المشتقة تتألف من العواطف الاساسية على نحو ما يتألف المركب الكيماوي من عناصره الاولى . والصعوبة في رد العاطفة المركبة الى عناصرها الاولى هي كالصعوبة في رد المركب الكيماوي الى عناصره التي يتركب منها ثم ان الطبيعة لا تعطي الفرد هذه العواطف الاساسية جاهزة ناضجة شأنها في معظم ما نعرضه فيه من عواطف اساسية . والحقيقة ان لزوج هذه العواطف المركبة يتوقف الى حد كبير على طرائق التلقين المختلفة التي يخضع لها المرء طوعاً او قسراً ، والتي لا شك تساعد في تثبيت هذه العواطف وتمكينها من النفوس . يضاف الى هذا ان العواطف الاساسية الاولى تنفذ معظم خواصها متى دخلت في تركيب العاطفة المركبة ، على نحو ما تشاهده في المركبات الكيماوية حينما تتألف عناصرها الاساسية وتتحد . زد على ذلك ان العواطف الاساسية كعاطفة الغضب والخوف والحب (بالمرنى الجنسي) والاستعلاء والتضامر هي عواطف قوية بارزة . وليس كالبروز والقوة في الصفات النفسانية شيان يسهلان دراستها . على حين ان العواطف المركبة ليس لها مثل ذلك البروز والقوة . واحداً قد يقرأ قصة الحياة من النها الى يثها ولا يتاح لبعض هذه العواطف فيه ان تهض من رقبتها ، فيحبها ويموت وكأن لم يكن لهذه العواطف اثر في حياته . ذلك ان مشيرات هذه العواطف هي الاخرى معتدة متعددة

الجوانب ، فلا يسهل اجتماعها — والحالة هذه — في وقت واحد لتثير عاطفة بعينها من هذه العواطف المركبة . ثم لا ننسى ان الفرق في الكثرة بين العواطف الاولية والعواطف المركبة هو نسبياً كالنرق بين العناصر الاساسية في الطبيعة وجرعاتها ، مما يجعل الاطالة اطالة تامة بهذه العواطف جميعاً من الامور العسيرة

ولكن على الرغم من هذا كله ففي طبيعة العواطف المركبة ذاتها ما يساعد على تمييزها من العواطف البسيطة ودراستها . فلتمييز بين العواطف الاساسية والعواطف المركبة على الدارس ان يلاحظ هل العاطفة المراد درسها ظاهرة بوضوح وجلاء في احد الحيوانات العليا غير الانسان فاذا رآها كذلك عندها يرجح ان هذه العاطفة عاطفة اساسية ، لان الذي عليه جهود الباحثين النفسيين ان الحيوان لا يشارك الانسان في العواطف المركبة . وعليه فالعاطفة التي نتقدها في الانسان والحيوان هي عاطفة اساسية ، والعاطفة التي يتأثر بها الانسان هي عاطفة مركبة . واذا اخضعت احدى هذه العواطف ورأيت انها قد تظهر في بعض الناس بمظهر الشذوذ المستديم فالراجح ان هذه العاطفة عاطفة اساسية غير مركبة . فالعاطفة المركبة هي في الحقيقة كالجرم المنقلب يصعب تحريكها عن مركز ثقلها او زحزحتها عن نقطة ارتكازها لتظهر بمظهر الشذوذ والانحراف . فعاطفة الخوف او عاطفة الغضب او عاطفة الاستعلاء او غيرها من العواطف الاساسية قد تظهر بمظهر الشذوذ الشديد في بعض الناس ، ولكن يندر جداً ان تظهر عاطفة الاحترام او الكره او الانتقام من العواطف المركبة بمظهر الشذوذ . نعم ان هذه العواطف قد تظهر بمظهر العنف او المبالغة ، ولكن العنف والمبالغة هما غير الشذوذ

وحيثما يتجه الباحث النفسي الى تحليل هذه العواطف المركبة بعد ان يستيقن من انها مركبة غير بسيطة يجب ان يدرس ويلاحظ بدقة جميع التغيرات والمظاهر التي يلاحظها في موضوع درسه حينما تثار احدى هذه العواطف . والحقيقة ان لكل من هذه العواطف المركبة مظاهر خاصة تساعد على تمييزها . وليس ادل على ذلك من ان معظم الممثلين الناجحين يستطيعون ان يحسوا على المسرح بحركاتهم وسكناتهم جميع طيوف العواطف المركبة كالخوف والزياء والفكر والكبرياء والاعجاب والتلق والتناق وما الى هذه من عواطف مركبة معتقدة

كذلك يساعد على تبيين هذه العواطف دراساتها في درجة عليا من الاستفزاز . ففي استقارة هذه العواطف والاحاح عليها ما يكاد يحملها الى عناصرها الاولية ، مما يساعد على دراستها وتمييز صفاتها . وبعضة امثلة من هذه العواطف تؤخذ وتحتل تكفي لايفساح الطريق التي يسير عليها من يود الاطلاع بطبيعة هذه العواطف والكشف عن عناصرها

من العواطف المركبة عاطفة الكره وهي مكونة من طفتين اساسيتين هما عاطفة الغضب وعاطفة الخوف . ولنا نرى ان عاطفة الاستفزاز — كما يريد مكدوجل — داخلة في تكوين

هذه العائنة أيضاً. هذا على تقدير ان عاطفة الاشمزاز هي عاطفة بسيطة . ولكن التي ترجعها ان عاطفة الاشمزاز هي عاطفة مركبة . فهي من العواطف الانسانية المحضنة . والحيوان في الراجح لا نصيب له منها . والعواطف المركبة هي — كما مر معنا — العواطف التي يتأثر بها الانسان دون الحيوان . وعلى كل ليس ثمة ضرورة لفرض وجود هذه العاطفة وحسباً عنصراً اساسياً من عناصر العاطفة المركبة لان طائفتي الخوف والغضب وحدها تكفيان لتفسير هذه العاطفة . خذ موضوعاً تتوافر فيه مشيرات هاتين العاطفتين فقط فتجد انه دائماً يثير عاطفة الكره . شخصٌ يثير مخاوفك لقدرة على الايذاء ويثير غضبك لتوجهه نحوك بهذا الايذاء يستطيع ان يبعث فيك عاطفة الكره دون ان يكون فيه ما يبعث على اشمزاز . ولا نستقد ان امثال موسوليني ونابليون ومعطى كمال يثيرون في خصومهم عواطف الاشمزاز ، مع ان هؤلاء الخدوم يتفاهرون بهذه العواطف . والرجل العاني الذي يتسلط على جماعة من البشر يثير كرههم ؛ لانه يعضهم بتوجهه بالاذى اليهم ولانه يخيفهم لنته واحتماله الاتصاف منه عليهم . فالكروه اذاً يجب ان تتوافر فيه مشيرات هاتين العاطفتين : الخيف وحده لا يثير فينا عاطفة الكره . كنظر الاسد مثلاً . وما يثير عاطفة النضب وحدها لا يثير فينا عاطفة الكره ايضاً — كالطفل الذي يكسر آنية عزيزة عليك . ولا يثير الطفل فيك عاطفة الخوف لانه عاجز عن ابدائك اذا رمت ان تقتص منه

والحسد عاطفة اخرى مركبة . وبينها وبين عاطفة الكره نسب شديد لان عنصراً من عناصر عاطفة الكره داخل في تركيبها . فهي مكونة من عاطفتين اساسيتين : عاطفة التصاغر وعاطفة الغضب . اما عاطفة التصاغر فهي هذا الشعور الذي يتولى علينا ازاء ما يشمرنا بعضنا ومثلنا بيد ان ما يثير عاطفة التصاغر لا يكفي ليشير عاطفة الحسد اذا لم يثير عاطفة الغضب . ونحن لا نشمر بشيء من الحسد للتجار او الملاكم القوي الا اذا كانت قوته مبعث خطر او مصدر حرمان لنا . وقد لا يتوجه للحدود بالاذى مباشرة الى الحاسدين ، ولكنه مع ذلك يظل يثير عاطفة الحسد في الصدور . ومن هنا كان الناجعون في الحياة هدفاً لحسد الحاسدين سواء اكان هؤلاء الحاسدون مزاحمين لهم او غير مزاحمين . ولعل في قرارة كل نفس شعوراً بأن الناجح اياً كان سببه في النجاح ومهما كان متجهه في الحياة يمجور على نصيب غيره ويسلبه فرصة من فرص النجاح ولا نستطيع بغير هذا ان نملل شيوع التحاسد بين الناس الى هذا الحد ويقرب من العاطفتين السابقتين في طبيعتهما العدائية عاطفتان اخريان هما عاطفة الاحتقار وعاطفة الانتقام . اما عاطفة الاحتقار فيرجع انها مركبة من طائفة الاستعلاء الاساسية ومن عاطفة الكره المركبة . فالحتقر لا يكون محتقراً اذا كان يثير عاطفة الكره ولا يثير طائفة الاستعلاء وطائفة الاستعلاء يثيرها شعورك بالتفوق في ناحية من النواحي على من تتعالى عليه . ويجدر ان ننبه هنا الى ان من مظاهر الاحتقار ما هو حقيقي ومنها ما هو مستكلف

مصطنع . وهذا النوع المصطنع هو الذي يحفره - عدا عاطفة الكره - عاطفة التناغر . وهو في هذا لا يختلف بطبيعتها عن نطس الذي يتكرن من عاطفتي الكره والتناغر . ولعل عاطفة الكبرياء هي في معظم الاحوال وجه من اوجه الاحتقار المصطنع الذي لا يثيره في الحقيقة احساس صحيح بالتساوي والاستعلاء بل احساس خفي بالتعاضد معاناً الى عاطفة الكره . اما عاطفة الانتقام فالغضب والاستعلاء عنصران الاكبران . فالغضب وحده لا يكفي ليشير عاطفة الانتقام . والامور التي تستفز غضبنا ، وهي مع ذلك ابعث ما تكون عن اثاره الانتقام ، لا تعد ولا تحصى . كذلك واضح ان ما يثير عاطفة الاستعلاء وحدها لا يثير عاطفة الانتقام . فانت لا تفكر في اذى زيد لجرد انك اقوى منه . ولكك تفكر في اذاه حينما يشتد غضبك من عمل من اعماله . ولكننا نحب ان نشير هنا الى ان المرء قد يصعب ويتجاوز عن الانتقام حينما يثبت للملأ انه قادر على ايقاع الاذى فيمن اثار فيه عاطفة الانتقام . والغزو عند المقدرة هو من هذا القبيل . وقد لا يعضو القادر على الانتقام الا اذا يقن ان غنوه سوف لا يحمل منه على عمل الضعف والعجز عن اثبات شخصيته وتقررها .

وفي العواطف المركبة ايضاً عاطفة الاعجاب . وهي تختلف عن العواطف السالفة في طبيعتها الموجبة غير المدائية . وهي من اسمى العواطف الانسانية ، ولا تسمى وترعرع الا في النفوس الرقيقة دقيقة الحس . والناس يتفاضلون تفاضلاً كبيراً في تعبيرهم منها لهذا السبب . وتركب هذه العاطفة من عاطفتين اساسيتين هما عاطفة التناغر وعاطفة الاستغراب . فعاطفة الاستغراب تظهر بمظهر الانتباه الكثير لشيء المستغرب وادامة التفكير فيه . وهذا عنصر واضح في عاطفة الاعجاب . فكل ما يثير اعجابنا يقترنا على الاسترسال في النظر اليه والتفكير فيه . ولو خف استغراب الناس لتألبون وانحى عنده في قدر الرجل المادي لما كان لنا هذا السبل من التراجم الذي لا ينتطح حياة هذا العبقري . واناس لا يتفكرون بمجربون بكل شخصية او حادثة من حوادث التاريخ الى ان تصبم فيها جيداً . وحيداً كيتلاشي الاعجاب والاستغراب على انه لا يكفي الشيء ان يثير عاطفة الاستغراب وحدها لكي يثير فينا المعجب عاطفة الاعجاب . بل يجب ان يتصف بعنفة بارزة مفقودة فينا او نسينا منها لعيب ضئيل تقترنا على الخضوع والتناغر امامها . وليس من الضروري ان يكون الشيء الذي يثير فينا عاطفة الخضوع انساناً فقد يكون باخرة ضخمة تمخر شباب اليم او طائرة تثر في الفضاء ، او جلاً اشم او وجهاً وسياً او صورة بلغت الغاية في الاتقان . وقد يتجه الاعجاب اول الامر الى الموجد هذا الشيء الذي اثار حاسة الاعجاب . واذا لم يكن ثمة شخص ظاهر معروف ترجع اليه الاشياء التي نعجب بها فاننا نرجع معادراً اعجابنا الى قوة خفية غير منظورة . وهذا لا ريب طائل كبير في نشوء الاديان القديمة وفي نشوء فكرة خالق عظيم يهبس عن جميع الكائنات . وسوف نقتل للدين

سلطته وجبروته ما دام في الكون اسرار والغاز يحار العقل البشري فيها ويعجز عن النفوذ بها
ويجب ان نذكر ان عامل الخضوع امرٌ ضروري في توليد هذه العاطفة. وهذا يفسر لنا
كيف ان المبرورين هم اقل الناس اعجاباً بالاشياء المعجبة. وقد تتصف بعض مشيرات الاعجاب
بصفة اخرى تثير عاطفة الخوف. فنظهر عاطفة الاعجاب ملونة بلون يبعث على الخوف والرعدة
ولقطة « روعة » هي من هذا التيبيل وهي خير ما يقابل كلمة awe التي تدل عليها بالانكليزية
ولحق بعاطفة الاعجاب عاطفة الاحترام إلا انها أكثر تعقيداً وأمت صلة منها بالانسان
ولا يثيرها في انسان إلا انسان آخر. في حين ان عاطفة الاعجاب قد يثيرها حيوان او
جاءد. والمرء، لكي يثير فينا عاطفة الاحترام، يجب ان يتصف بما يثير الخوف والرعدة فينا
علاوة على ما يثير الاعجاب. وبعبارة اخرى يجب ان يتصف بما يثير عاطفة التساغر وعاطفة
الاستغراب ثم عاطفة الخوف، ولكن على شرط ان يستغل القوة التي تبثت الخوف فينا
لنضع لا الاضرار. فان قائد الحازم الباسل لا شك يبعث في صدور جنوده عاطفة الاحترام اذا
كان ينادي بنفسه في المعركة ويواصل دونهم لصال المستحيت مهما كانت يده ثقيلة عليهم ومهما
اخذهم بالشدّة والعنف. ومثل القائد في ابحاث عاطفة الاحترام فيمن يحيط به كل رئيس
مقتدر يبر مقتدرته في سبيل النفع لا الايذاء. وقد يحيل المرء ان ثمة اشخاصاً يبتعثون فينا
عاطفة الاحترام دون ان يكون لديهم ما يبعث على الخوف. ولكننا في الحقيقة لو دققنا في
ملخص عراطفنا ازاء مثل هؤلاء الاشخاص لوجدنا انها عواطف اعجاب أكثر منها عواطف احترام
والقلق عاطفة اخرى مركبة يثيرها في الغالب عاملان عامل الحب للشيء او الامل في نيله
ثم الخوف عليه والخشية من فقدّه او استحالة الحصول عليه. وعلى قدر ما تكون النسبة
بين هذين العاملين يكون القلق قوياً او ضعيفاً. فأنت قد تأمل نيل شيء ولكنك كبير الشك
في نيله في هذه الحالة يكون القلق والحيرة على اشدهما. او انك تنال شيئاً او تتأكد من نيله
ولكنك لا تستطيع الامتناع عن التفكير في امكان الحرمان منه. في هذه الحالة يتولي عليك
احساس بالقلق. ولكنه احساس اقرب الى الاستمتاع واستمتاع السعادة منه الى القلق المعض
وفي ختام هذا البحث لا يسعنا إلا الاشارة الى ان اسلوبنا في دراسة هذه العواطف
وتحليلها كان في معظم الاحوال اسلوب الاستبطان والدراسة الذاتية. ولذا فنحن لانستغرب
ان يكون القارئ على خلاف رأينا في تحليل بعض هذه العواطف. لان دور البت بشأن
طبيعة هذه العواطف المركبة لم ينجى بعد. وكل ما تأمله هو ان يستثير هذا البحث في نفوس
القراء الرغبة في الوقوف من هذه العواطف الانسانية مرقفة التقدير والتحليل. ففي ذلك،
فوق ما فيه من متعة ولذة، فهم صحيح للطبيعة البشرية وهو ما تحاول جميع العلوم «الانسانية»
ان تحققه او تدنو منه على الاقل